الأستاذ محمد قديح

نظرة الإسلام في الشعر

... تكاثر عدد الشعراء في العصر الإسلامي لأسباب سياسية واجتماعية ، فتطور الشعر تطوراً محسوساً بتأثير هذه الأسباب، وظهرت فيه فنون جديدة كانت ضعيفة في الجاهلية فزادت قوة في الإسلام كالغزل والشعر السياسي...

جاء النبي الكريم (ص) . والشعر ديوان العرب فأتاهم بالأمر العظيم ، والحادث الخطير، حاملاً بإحدى يديه االقرآن الكريم يدعو الناس إلى توحيد الله ، والتمسك بالفضيلة ، وشاهراً بالأخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة .

وما كان أشد ذهولهم لخطبهما وإنزعاجهم من وقعهما ، فهبوا يتحسسون الأول يتمرسون أساليبه و معانيه و يتفرسون ألفاظه ومغازيه ، ما بين معادٍ يتلمس مطعناً فيه ومؤمن يستبينه ويستهديه ، وتأهبوا للثاني بين ضالٍ يناوئه ومهتدٍ يعاضده ، فكان ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر، محولاً مجرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه المنحرفة عن سنن الشرف والحق، كالمدح بالباطل والهجاء والمغازلة ، وبغض اليهم تلك الفنون المرذولة بإزراء القرآن على الشعر بقوله:

"والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تراهم في كل واد يهيمون ، وإنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ".(سورة الشعراء الآية 224)

ولهذا لم يكفّ شعراء المسلمين عن قوله فيما يطابق روح القرآن كالموعظة والأرشاد ومدح الرسول... ولبث الحال على ذلك مدة حياة النبي (ص)، وكان شعرهم الإكثار من التباهي بالنصر، و وصف المعارك، وأحوال الحصار، وآلات القتال ...

ولما آل الأمر إلى بني امية وشغب عليهم كثير من فرق المسلمين، أصبح الشعر لساناً يعبر عن كل مقصد، وكل حزب حتى أصبح حرفة عتيدة، وصناعة جديدة، ومورد ثروة ... وأصبحت دراسته ونقده وروايته دأب العلماء والأدباء حتى الخلفاء وأولياء عهودهم .

هذا ويمكن وصف ما كان عليه الشعر في هذا العصر من حيث أغراضه ومعانيه وتصوراته بما يلي :

- أغراض الشعر وفنونه

1- عقائد الدين وحكمه ووصاياه والحث على اتباعه وخاصة زمن النبي (ص) وخلفائه الراشدين .

2- التحريض على القتال ووصفه، والترغيب في نيل الشهادة رافعاً لكلمة الله، وذلك في أزمان غزوات النبي (ص) وحصار المدن وفتحها .

3- الهجاء : أولاً في سبيل الدفاع عن الإسلام يهجو مشركي العرب بما لا يخرج من حد المروءة.

4- المدح : وقلما كان مبدأالإسلام في غير النبي من حيث الإهتداء يهديه ونشر الحق على يديه ، وكان حلفاؤه يأنفون مدحهم بما تُزْهى به نفوسهم تواضعاً.

ثم استرسل الشعراء فيه وقَبِلَ ذلك منهم الخلفاء إلى ان كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاء والولاة والإشادة بعظمتهم.

- **أسلوب الشعر في العصر الإسلامي .**

لم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصورهم وتخيلهم عما ألفوه من الجاهلية، وإن فاقوهم كثيراً في ترتيب الفكر ، وتقريب المعنى إلى الأذهان والوجدان، بما هذَّب نفوسهم ورقق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسول الله، وكذلك لم يخرجوا جملة في هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرها في الجاهلية، وإنما آثروا جزالة اللفظ ،وفخامته، ومؤالفته لسابقه ولاحقه، دون

غرابة ، كما آثروا جودة الأسلوب، ومتانته وروعة تأثيره، ولا سيما أهل النسيب ولم يطرأ على أوان الشعر العربي حدث غير ما عرف عنه في الجاهلية . وإنما شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها في جميع أغراض القصيد حتى في افتتاحها بالنسيب ، والتخلص منه إلى المدح والذم ...

سنتكلم في هذا النص عن شاعر تميَّز في هذه الفترة التاريخية:

الحطيئة

1-حياته : شاعر مخضرم .. لولا ما وُصِمَ به من خسة النفس، ودناءة الخلق ، وجهالة النسب لكان بإجادته في كل ضرب من ضرب الشعر زعيم الشعراء المخضرمين.

هو أبو مليكة جرول الحطيئة العبسي،منشأه معلول النسب ، وكان جشعاً سؤولاً ملحفاً دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير بخيلاً، قبيح المنظر، رث الهيئة، فاسد الدين.

عاش الحطيئة مدة الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم، لم يكن له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم.

عاش الحطيئة متنقلاً في القبائل يمدح هذا تارة ويذم هذا تارة أخرى ، وينتسب إلى عبس طوراً و طوراً إلى ذهل، ويهجو اليوم من يمدحه بالأمس...

روي أنه أتى أهل القرية وهي في اليمامة وهم من بنو ذهل . وطلب ميراثه من الأفقم ومدحهم بقوله :

إن اليمامة خير ساكنها أهل القرية من بني ذهل
الضامنون لمال جارهم حتى يتم نواهض البقل
قوم إذا انتسبوا ففرعهم فرعي وأثبت أصلهم أصلـي

فدفعوه ولم يعطوه شيئاً فحوَّلَ في ذلك المديح إلى هجاء :

إن اليمامة شر ساكنها أهل القرية من بني ذهل

ثم عاد الى بني عبس وانتسب إلى أوس بني مالك . وكل قبيلة تخطب وده تتقي شر لسانه ، حتى أن عمر بن الخطاب حبسه ، وبقي يستشفع إليه بالناس، وقول الشعر حتى أطلقه و هدده بقطع لسانه إن هجا أحداً . اشترى به أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكنه نكس و أوغل في الهجاء بعد موت عمر، وبقي كذلك حتى مات أوائل خلافة معاوية .

2-الحطيئة والإسلام:

أدرك الحطيئة الإسلام فانتحله ديناً، وكما قلنا آنفاً لم يكن له صحبة مع النبي ، ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ارتدَّ الحطيئة في جملة المرتدين وقال في ذلك :

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبـي بكر ؟
أيورثها بكراً ، إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

والمعنى هنا أن (أيورثها بكراً .) فاعلها أبو بكر والضمير عائد إلى الخلافة المقدرة . ويقول إذا مات أبو بكر أيورث الخلافة بعده بكراً قاصمة : (قاطعة وقاصمة الظهر ، الداهية التي تقطع الظهر . ولكنه لم يجاهر بالدين ، بل ظل يتكلف الدين رهبة لارغبة ، وفي نفسه ما فيها من النزوع على عيشة البدوي الحر، الذي لم يكن قبل الإسلام يتقي سلطاناً ولا يرعى نظاماً .

3-أخلاقه :

هو كما وصفه الأصمعي وكما ذكرنا (جشع دنيء النفس كثير الشر قليل الخير .....)

الجشع هي الصفة الجامعة لسائر صفاته القبيحة ، ولأن طمعه الشديد في المال جعله ولعلى سؤولاً ، وكثرة التسآل تميت عزة النفس وتُحيي الناءة ، ولا بدَّ لدنيء النفس من أن ينافق في مصاحبة الناس.

وللحطيئة في ضيوفه أخبار عجيبة، رواها صاحب الأغاني ، وضافه رجل من بني رؤاس فهجاه بهذين البيتين .

وسلمَّ مرتين ، فقلت : مهلاً ! كفتك المرة الأولى السلاما

ونقنق بطنه ودعا: رُؤوساً لما قد نال من شبع ونامـا

وللحطيئة صفة حسنة وحيدة لعلها تشفع له في شيىء من جشعه وبخله وهي حبه لأولاده وحنوه عليهم . ورأينا ذلك كيف استعطف عمر بن الخطاب وأبكاه بقوله :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخٍ زُغبِ الحواصلِ ، لا ماءٌ ولا شجرُ؟

فبكى عمر :ما أظلّت الخضراءُ ، ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة .
وعندما قدمت زوجته راحلته ليركب عندما أراد السفر قالت :

أُذكر تحَنُّنَا إليكَ وشوقنا واذكُرْ بناتك ، إنهنَ صغارُ

فقال :

(حطوا لا رحلت لسفر أبداً)

وحدث محمد بن سلام أن الحطيئة خرج في سفر ومعه امرأته أمامة وابنته مليكة ، فنزل منزلاً وسرح ذوداً له ثلاثاً فلما قام للرواح فقد إحداها فقال :

أَذِئْبُ القَفْرِ ، أمْ ذئْبٌ أنيسٌ أصاب البَكْرُ ، أم حدث الليالي؟

ونحنُ ثلاثةٌ ، وثلاثُ ذَوْدٍ ، لقد جارَ الزمـان على عيالي

والمعنى هنا البكر : هي من الإبل بمنزلة الناس يطلق هذا الإسم على الذكر والأنثى . والذود هي الثلاث من الإبل إلى العشرة .
ففي هذين البيتين وفي عدوله عن السفر وفي استعطافه عمر ، عاطفة صادقة وحنو ظاهر وملموس.

4-آثاره:

للحطيئة ديوان في المديح والفخر والنسيب وخصوصاً الهجاء ، وهو من أصحاب المشوبات (التي شابها الكفر) ومشوبته مدونة في (جمهرة أشعار العرب) ومطلعها :

نَأتْكَ أُمامةُ إلا سُؤالا وأبصرْتَ منها بعينٍ خيالا

والمعنى هنا (أي بعدت عنها ولم يبق منها إلا السؤال عنها وأبصرها بعين الخيال) وهنا هو يخاطب نفسه على سبيل التجريد .

5-ميزته:

شعر الحطيئة له صورة ناطقة عن حياته وأخلاقه، وهجاؤه أصدق ترجمان لسرائر نفسه .

فكان يروي شعر زهير بن أبي سلمى، ويحذو حذوه في تهذيب قصائده وتنقيحها، ويضرب على غراره في الإعتماد على الصور المادية المحسوسة.

6-هجاؤه :

شهرة الحطيئة في الهجاء والنيل من أعراض الناس، تخجل الأديب أو القارىء من رواية أشعاره، على حين ان الحقيقة غير ذلك . فالحطيئة من أكثر شعراء الجاهلية هجواً لهو أقلهم

وربما غلبت العفة على لسانه، فما ينطق بما تستحي العذراء أن تتلوه لأبيها ، فقصيدته التي قالها في الزبرقان وهي من أشد قصائده الهجائية لذعاً ، وأبعدها صيتاً تعتبر أنها أشرف الشعر وأعفه وأنقاه .

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لِبُغْيَتِها واقْعُدْ ، فإنك أنت الطاعم الكاسي

وهجاء الحطيئة نوعان: نوع تجاري يندفع إليه حباً للمال، كهجوه للزبرقان. ونوع عاطفي يندفع إليه من تلقاء نفسه حباً للتشفي والإنتقام ، كهجوه أمه ونفسه وأقرباءه وأضيافه. لقد سخط على أمه الضراءوعلى نفسه وقال :

تقولُ لي الضراءُ : لَستَ لِواحِدٍ
ولا اثنين ، فانظُرْ كيف شِركُ أولئكا
وأنتَ امرُؤٌ تبغي أباً قد ضَلَلتَه،
هَبِلْتَ ! ألما تَسْتَفِقْ من ضلالِكا

والحطيئة عندما لم يجد أحداً يهجوه رأى من وجهه وقبح صورته موضوعاً للهجاء فقال:

أبَتْ شَفَتايَ اليومَ إلا تَكَلّماً بشَرٍ ،فما أدري لِمَنْ أنا قائِلُهْ
أرى ليّ وجهاً شَوّهَ الله خَلقه فقُبّحَ مِنْ وَجْهٍ ، وقُبّحَ حاملُه

6-مدحه :

الحطيئة متفنن، فالمدح عنده كالهجاء آلة للتكسب ، فإذا لم يدرّ له المريء والإبساس ، استعان بالأنياب والأضراس ، وإذا أخلف غيثُ الهجاء استمطر عارض الثناء . الا وأن أروع الشعر استعطافه عمر بن الخطاب ومدحه اياه ففيه كثير من الحلاوة والرقة وكثير من الحنو الأبوي . ومع ان الحطيئة لم يكن على شيء من الإسلام فتأثير القرآن ظاهر على شعره ، سواء في قوله

(فاغفر ، عليك سلام الله يا عمر)

أو في قوله :

(من يفعل الخير لا يعدم جوازيه)

الهجاء عند الحطيئة هي الخاصة التي شهرته وخلدت ذكره .

منزلته :

للحطيئة منزلة عالية في الشعر يزاحم بها أفعل الشعراء ويمتاز بحلاوة أشعاره وألفاظه ووضوح معانيه وصحة تعابيره وإحكام قوافيه وبعده من الضعف والإسفاف . وقد عده ابن سلام في الطبقة الثانية وقال فيه :

هو متين الشعر شَرود القافية . أي عنده قافية شاردة أي سائرة في البلاد .

وروى حماد عن أبيه إسحاق قوله : أما اني أزعم أن أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة

وقال أبو عبيدة : ما تشاء أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً ، وما أقل ما تجد ذلك في شعر الحطيئة .

7-موته ووصيته :

اختُلف في تاريخ موته ، فزعم بعضهم أنه مات في أواخر خلافة عمر ، وقال غيرهم إنه أدرك معاوية ابن ابي سفيان .

وقبل موته أوصى بأن يحملوه على أتان أي (الحمارة) وان يتركوه راكبها حتى يموت .

قال إن الكريم لايموت على فراشه وألآتان مركبٌ لم يمت عليه كريم قط . فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول

لا أحَدُ ألأمُ مِنْ حطيه ، هَجا بَنِيهِ ، وهَجا المُريهْ

من لؤمه مات على فُرَيّه

وسئل الحطيئة : من أشعر الناس ؟ فأخرج لسانه ثم قال :(هذا إذا طمع ...)

وقد صدق بقوله . وهو أشهر الشعراء الهجائين الذين كثر عددهم في الإسلام .

المراجع :

أدباء العرب

ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت

الحطيئة وجه مختلف من ديوان العرب

جواهر الأدب